مجلة "مدارات في اللّغة والأدب" الصادرة عن مركز مدارات للدراسات والأبحاث، تبسة–الجزائر.

المجلد:01. العدد:03. السنة:2019. ص 21– 45
ISSN 2661-765x

بنية الخطاب الأنموذج في تفسير ابن عاشور – قراءة في مدوَّنات المتوكِّل–

* د. خديجة الصافي

جامعة الجوف، المملكة العربية السعودية.

البريد الالكتروني:kmsafi@ju.edu.sa

تمهيد:

يُميَّز الخطاب عن الجملة في النّظريّات اللّسانيّة الحديثة من نواحٍ مختلفة ؛من حيث :حجمه، أو دلالته ،أو تداوله ، لهذا سمح هذا التّمايز بظهور ما سُمِّي بلسانيّات الخطاب(تحليل الخطاب) وهو مُسمًّى مقابلٌ للسانيّات الجملة لتجاوزه البحث في الجملة إلى البحث في الخطاب ،ولأن الخطاب القرآني أسمى الخطابات ،كانت بُناه –ولا تزال – نماذجَ للخطابات بأنواعها ،وهذا ما حاول ابن عاشور[1] مرارا إثباته في تفسيره (التحرير والتنوير) بانتهاجه للمنحى الوظيفي الذي تجاوز البنية إلى تحديد دورها من أجل تحقيق التواصل الفاعل ،وعليه لاحت حتمية التمييز بين

* المؤلف المرسل: kmsafi@ju.edu.sa

(1) الطاهر ابن عاشور ابن عاشور هو : العلامة المفسر محمد الطَّاهر بن محمد بن محمد الطَّاهر بن عاشور ، ولد في تونس سنة (1296) هـ ، الموافق (1879) م ، وهو من أسرة علمية عريقة ،برز في عدد من العلوم ونبغ فيها ، كعلم الشريعة واللغة والأدب ، وكان متقنا للُّغة الفرنسية ، وعضواً مراسَلاً في مجمع اللغة العربية في دمشق والقاهرة ، تولى مناصب علمية وإدارية بارزة كالتدريس ، والقضاء ، والإفتاء ، وتم تعيينه شيخاً لجامع الزيتونة ،ألف عشرات الكتب في التفسير ، والحديث ، والأصول ، واللغة ، وغيرها من العلوم ، منها تفسيره المسمَّى اختصارا: " التحرير والتنوير" أما اسمه الكامل فهو: " تحرير المعنى السديد ، وتنوير العقل الجديد ، في تفسير الكتاب المجيد" ، . " ، و" مقاصد الشريعة " ، و" كشف المغطا من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ " ، و" أصول الإنشاء والخطابة " ، و" النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح " ، وغيرها من الكتب النافعة،توفي في تونس سنة (1394) هـ ، الموافق (1973) م، عن عمر يناهز الـ (98) عاماً ،ينظر :محمد الطاهر ابن عاشور .https://ar.wikipedia.org/wiki/.

المنارة للاستشارات

ww

الخطابات في هذا البحث ، بعد الإشارة إلى ماهية الخطاب في الدرس اللساني الحديث ،و قبل استعراضٍ أهمِّ نماذجه آخرا .

تعريف الخطاب :

الخطاب والمخاطبة –لغةً– " مراجعة الكلام ، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا ، وهما يتخاطبان...، وذهب أبو إسحاق إلى أن الخطبة عند العرب : الكلام المنثور المسجع ، ونحوه ...والخطبة ، مثل الرسالة ، التي لها أول وآخر"[1] .

فالكلام خطابٌ ،ولأنّ كلّ واحد منا يُخاطِب ويُخاطب ،وجب في الخطاب أن يكون مفيدا فائدة يحسن السكون عليها على حدِّ الكلام في عُرف النّحاة ،غير أنّ ما ذكره أبو إسحاق من شرط كون الكلام خطابا أن يكون نثرا أوّلا ،ومطرّزا ثانيا ،قد أضاف شرطا نراه ثانويا في تحقيق التواصل بالخطاب عامّة ،وهو كون لغة هذا الخطاب لغةً أدبيّة راقية ،ولا نرى هذه السِّمة شرطا إلا في مفهوم الخطبة الذي أُشير إليه بالرِّسالة أوّلا ؛لأنّها تحمل مضمونا هادفا ،ولأنّها تحتاج إلى مقدِّمة وخاتمة ثانيًا.

بحسب ما يحقِّقه الخطاب من تواصل ظهر في مادته المعجميّة ،يمكن تعريف الخطاب اصطلاحا بتعريف المتوكل[2] له قائلا:" "هو كلّ مجموعة من الجمل يتمّ بها التّواصل بين مستعملي

(1) لسان العرب ،مادة (خ.ط.ب).

(2) د.أحمد المتوكِّل لغويٌّ مغربيٌّ مشهور رائد النّحو الوظيفي في العالم العربي ،نقل نظريّة النّحو الوظيفي إلى المغرب بداية الثمانينات ليقوم باستنباتها بدايةً ،فتأصيلها ، فالإسهام في تطويرها ،له مؤلفات عديدة في محورين اثنين ؛محور العلاقة بين الفكر اللّغوي القديم والدّرس اللّغوي الحديث، والمحور الثّاني وصف وتفسير ظواهر اللّغة العربية من منظور نظريّة النّحو الوظيفي ،وإمكان توظيف هذه النظرية في مجالات أخرى غير مجال وصف اللّغات، كما يسمى بالمجالات القطاعية، والمقصود بها ديداكتيك تعليم اللغات وتحليل النصوص على اختلاف أنماطها والاضطرابات اللغوية النّفسية إلى غير ذلك من القطاعات. ينظر:متوكل http://ar.wikipedia.org/wiki

المنارة للاستشارات
ww

اللّغة"[1] ،فالخطاب كما يُلاحظ من خلال نظريّة النّحو الوظيفي[2] تجاوز القدرة اللّغويّة الّتي تندرج في حيِّزها الجملة إلى حيِّز الإنجاز ، والحديث عن الإنجاز حديث عن الأفعال الكلامية المنشأة بمجرّد التّلفّظ بالخطاب. [3]

فالإنجاز قد يكون بجملة واحدة كما هو الحال في الأمر نحو قولك: "اسكت" ،أو بما في معناها كما يُعبِّر عنه اسم الفعل: "صه" أي "اسكت" ،وإن كان المعمول به في هذه النّظريّة أنّ الخطاب هو كلّ مجموعة من الجمل يتمّ بها التّواصل بين مستعملي اللّغة" كما ذُكر آنفا ،ومن البديهي أن تستدعي عملية التّواصل مشاركَين اثنين ؛ متكلِّم ومخاطب ،وهما ذاتان مجرّدتان تشتركان في هذه العمليّة مشافهةً أو كتابةً ، وليس بالضّرورة أن يكون المتكلِّم هو النّاطق كما يوحي بذلك لفظه(أي المتكلِّم) ،لأنّ التواصل كتابةً خطابٌ لا يُلزم صاحبه بالكلام وهو يكتب ،أو قد يكون صاحبه في الأصل أبكم. [4]

قد يأتي الخطاب إذن مرادفا للنّص ؛فيأتي على شكل سلسلة من الجمل يضبطها مبدآن ؛مبدأ الوحدة ومبدأ الاتِّساق أو التّناسق ،إلّا أنّ هذا المصطلح (أي النّص) يرى المتوكل استعماله منعدما في نظريّة النّحو الوظيفي [5] ؛ فيقول:" الخطاب يوحي أكثر من مصطلح النّص بأنّ المقصود ليس مجرد سلسلة لفظيّة (عبارة أو مجموعة من العبارات)تحكمها قوانين الاتِّساق الدّاخلي (الصّوتيّة والتّركيبيّة والدّلاليّة الصّرف) ،بل كلّ إنتاج لغوي يُربط فيه ربط تبعيّة بين بنيته الدّاخليّة وظروفه

(1) من قضايا اللّغة في اللّسانيات الوظيفيّة : بنية الخطاب من الجملة إلى النّص،أحمد المتوكل:18.

(2) تربط هذه النظرية دراسة اللغة بقضايا اكتسابها وبالكليات اللغوية وبالنحو الكلي(العالمي) مع رصد لتطورها وسعيا إلى تحقيق الكفاية الإجرائية. ينظر: الوظائف المتوكل :50.

(3) يُنظر :الأفعال الكلامية ،مسعود صحراوي :18.

(4) ينظر: المصدر نفسه :18.

(5) ينظر :الخطاب وخصائص اللغة العربيّة –دراسة في الوظيفة والبنية والنّمط–،أحمد المتوكل،أحمد المتوكل:21–22.

المنارة للاستشارات
ww

المقاميّة بالمعنى الواسع" [1] ؛فالنّص من المنظور الوظيفي معزول عن سياقه المقامي ،بعكس الخطاب – من المنظور نفسه – الذي يركِّز على دور المقام في فهم الخطاب.

عناصر الخطاب القرآني : من المعلوم أنّ الخطاب يتوفّر على عناصر متكاملة لإنشائه ،ولا يمكننا الحديث عن المخاطب (وهو الله) ،لأنّه –وإن تعدّد وتنوّع في القرآن –يبقى المراد هو تحقيق الغرض الذي أراد الله تمريره لعباده وإن كان على لسان المشركين ،وسيأتي بيانه في ثنايا البحث ،أمّا ما بقي من هذه العناصر ،فهي:

أ–المخاطب: تنوّعت صفات المخاطب في القرآن الكريم ،ولأنّ القرآن قد نزل للهدي وللتشريع ،رأى ابن عاشور أنّ هذا الهدي قد يكون:

– واردا قبل الحاجة.

–قد يكون مخاطبا به قوم على وجه الزّجر أو الثناء أو غيرها.

–قد يكون مخاطبا به جميع من يصلح لخطابه .

وهو في جميع ذلك قد جاء بكليّات تشريعيّة وتهذيبيّة ،والحكمة في ذلك أن يكون وعي الأمّة لدينها سهلا عليها"[2].

ب–البنية : وهي تمثِّل مستويات اللغة الأربعة (صوت وصرف وتركيب ودلالة) ،و تختلف بنية الخطاب باختلاف أغراضه من تعليمي إلى سردي إلى حجاجي إلى علمي ... وهلم جرا ،وإذا علمنا أنّه لن يصل المخاطَب إلى غرض المتكلم إلا بإلمامه بخصائص اللغة واستعمالاتها ،وهو ما يُعرف بالكفاية التفسيرية في أدبيات النّحو الوظيفي ، نجد ابن عاشور قد ظهر انتهاجه للمنحى

(1) من قضايا اللّغة في اللّسانيات الوظيفيّة : بنية الخطاب من الجملة إلى النّص،أحمد المتوكل:16.

(2)المصدر نفسه:50/1.

المنارة للاستشارات

ww

الوظيفي في تفسيره (التحرير والتنوير)[1]،في تشديده على المفسِّر لكتاب الله بوصفه حاملا للنّص الثاني –كون القرآن نصا أوّلا – ليبعده عن التفسير بالهوى ،فالأمر خطير لتعلّقه بتحليل الخطاب الإلهي من أجل تحقيق أغراضه ،لهذا بيّن ابن عاشور شروط المفسِّر – وإن كان للسّلف الفضل الكبير منها– حتى لا يوصف المفسِّر بالمترجم .

فامتلاك الكفاية التفسيرية ،هو امتلاك لكفايات ثلاثٍ مترابطة هي :الكفاية النفسية ،والكفاية النّمطية ،والكفاية التداولية[2] ؛ أمّا الكفاية النفسية فهي تستدعي توافقا بين إنتاج العبارة من المتكلِّم ،وتحقّق الفهم لدى المخاطب بما يتوافق مع مراد المتكلِّم ،ويراعي إنتاج هذه العبارة الأنماط التركيبية الواجب معرفتها عند كل من المتكلِّم والمخاطب ،وهي مراعاة قوانين اللغة الصرفية والنحوية والبلاغية ،وهذا ما عُرف بالكفاية النمطية .

تظهر الكفاية الأخيرة ،وهي الكفاية التداولية في استعمال اللغة ،وقد جمع ابن عاشور هذه الكفايات في المقدمة الثّانية "في استمداد علم التّفسير " قائلا:"....فاستمداد علم التّفسير للمفسِّر للعربي والمولّد ،من المجموع الملتئم من علم العربية وعلم الآثار ،ومن أخبار العرب وأصول الفقه ،قيل وعلم الكلام وعلم القراءات" [3] ،وهذه الشّروط أيضا هي ما اصطُلح عليها في نظريّة النّحو الوظيفي بشكل تفصيلي بالملكات الخمس وهي: اللغة ،و المعارف ،والثقافة ،والمنطق

(1) "المقصود بالمنحى الوظيفي العربي هو التّوجه اللّساني الذي يتّخذ نظرية النّحو الوظيفي إطارا عامًّا له ،والفكر اللّغوي العربي نحوا وبلاغة وأصول فقه وتفسيرا أصولا معادةٌ قراءتها " ، الخطاب وخصائص اللغة العربيّة –دراسة في الوظيفة والبنية والنّمط–،أحمد المتوكل .85

(2) من قضايا اللّغة في اللّسانيات الوظيفيّة : بنية الخطاب من الجملة إلى النّص،أحمد المتوكل:62.

(3) التّحرير والتّنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، محمد الطاهر ابن عاشور:18/1.

المنارة للاستشارات

،والإدراك [1] التي يجب توفّرها عند كلٍّ من المتكلِّم والمتلقِّي (المخاطب) لتتمّ عمليّة التّواصل في ظروفها المثلى.

ج–السِّياق المقامي في القرآن:

فمن الظّروف المقاميّة الواجب الإلمام بها لتفسير القرآن أسباب نزول بعض الآيات ؛فصياغة الآية ضمن فحوى خطابي يتماشى والخلفيّة المعرفيّة لدى المخاطب ،وهي معارف عامّة كأخبار العرب والأمم السّابقة والعلوم بوجه عام ،ومقاميّة تتمثّل في معرفة أسباب النّزول ،وسياقيّة يدخل السِّياق اللّغوي في تحديدها ؛كاختلاف أحوال المخاطبين ؛فمراعاةً لحال المخاطَب مسلمين أو كفّارا ،يدلِّل ابن عاشور عن سرٍّ طي ذكر الضمائر والإيجاز في سياقات كثيرة من القرآن الكريم ؛كما تتكيّف الصِّياغة مع نوع الخطاب (علمي ،أوقصصي ،أو حجاجي،أو تعليمي...) ،ومع مخزون المتكلِّم والمخاطب معا ،اعتمادا على قاعدة معرفية مشتركة [2] ، يستخدمها المخاطب لتّحليل الخطاب ،ومصادر تلك المعلومات متعدِّدة يمكن حصرها في :

– مخزون المخاطب المعلوماتي العام .

–الخطاب السّابق (السِّياق اللّغوي) ،والموقف التّخاطبي (السِّياق المقامي) .

–العمليّة الاستدلاليّة المنتهجة في الحجاج بخاصّة .

و يذكر المتوكِّل أيضا أنّ ورود الخطاب الواحد على كيفيات متباينة تباين الأفراد تحكمه ملكة سادسة ،هي الملكة الشِّعريّة الّتي تفرِّق بين المتكلِّم العادي والمبدع ،ولا نقول شاعرا كما فضّل المتوكِّل

(1) ينظر : المصدر نفسه ،أحمد المتوكل:135 ،و ينظر: من قضايا اللّغة في اللّسانيات الوظيفيّة : بنية الخطاب من الجملة إلى النّص،أحمد المتوكل:36-37.

(2) ينظر: المصدر نفسه: 19.

المنارة للاستشارات
ww

وصفه ،لأنّ تفرّد القرآن بخصائص فنّيّة ،كانت ومازالت محطّ الإعجاز البلاغي واللّغوي بوجه عام هو ما سعى جاهدا إلى استجلائه ابن عاشور في تفسيره للقرآن في مؤلّفه "التّحرير والتنوير" .

أثبت ابن عاشور –مثلا – إعجاز القرآن البياني في مزيّة السّكت قائلا:" إنّ بلاغة الكلام لا تنحصر في أحوال تراكيبه اللّفظيّة ،بل تتجاوز إلى الكيفيّات الّتي تؤدّى بها تلك التّراكيب ،فإنّ سكوت المتكلّم البليغ في جملة سكوتا خفيفا ،قد يفيد التّشويق إلى ما يأتي بعده ،ما يفيده إبهام بعض كلامه ثمّ تعقيبه ببيانه ،فإذا كان من مواقع البلاغة نحو الإتيان بلفظ الاستئناف البياني ،فإنّ السّكوت عند كلمة وتعقيبها بما بعدها ،يجعل بعدها بمنزلة الاستئناف البياني وإن لم يكنه عينه" [1].

يُمثّل ابن عاشور للسّكت فيما ورد في قصّة موسى عليه السّلام في قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه:09] ،فإنّ الوقف على "موسى" يُحدث في نفس السّامع ترقّبا لما يبيّن حديث موسى ،إضافة إلى سجعة الألف فيما يليها من آيات (طوى ،طغى ،تزكّى...).

بنية الخطاب الأنموذج في تفسير ابن عاشور:

يمكن تصنيف الخطابات من حيث : الغرض (سردي ،علمي ،احتجاجي ،تعليمي ،ترفيهي) أو نوع المشاركة فيه (حوار بين اثنين أو أكثر ،مونولوج) ،أو طريقة المشاركة (مباشرة بالتّخاطب وشبه مباشرة بالكتابة ،وغير مباشرة بالهاتف أو عن طريق المذياع أو التّلفاز) ،أو قناة تمريره (شفويّا بالكتابة) ،أو وجهه (موضوعي ، ذاتي) [2] إلى غير ذلك من التّصنيفات ،و فائدة التّصنيف تظهر في تحديد الخصائص الأسلوبيّة والبنية الدّاخليّة لكل نمط خطابي ،والّتي تميّزه عن نمط خطابي آخر[3] ،ولا يعني هذا التّصنيف أن تُعتمد في هذا المقام جهة واحدة لوصفه ،فالخطاب العلمي –مثلا– هو علمي بحسب الغرض و موضوعي من حيث وجهه.

(1) التّحرير والتّنوير ،محمد الطاهر ابن عاشور ،محمد الطاهر ابن عاشور:117/1.

(2) ينظر: من قضايا اللّغة في اللّسانيات الوظيفيّة : بنية الخطاب من الجملة إلى النّص،أحمد المتوكل:20-21.

(3) ينظر: المصدر نفسه: 23.

المنارة للاستشارات
ww

ولأن الخطاب الإلاهي الذي اختار الله تعالى أن يكون بلسان عربي مبين ،مُظهِرا لوحيه ،ومستودَعا لمراده ؛ بتلقي العرب أوّلا لشرعه وإبلاغ مراده لحكمة علمها ،فإنّ تقسيمه في هذا البحث يكون بالارتكاز على المقاصد الأصليّة (الأغراض) التي جاء القرآن لتبيانها ،وهي بحسب استقراء ابن عاشور لها ثمانية ،وللغزالي بعض منها في إحياء علوم الدين ،وُزِّعت في هذا البحث على هذا النّحو:

1– الخطاب التّعليمي:

يظهر من تحليل ابن عاشور لهذا النّمط أنّ التعليم تتجاذبه كلّ من السِّمتين الذاتية والموضوعية ؛فالذاتية تتجلى في موقف المتكلِّم من القضية [1] ،ولأنّ القرآن هو كلام الله ،كان إثباته ونفيه –عزّ زجل – للأحكام مُسلّمَة لا خيرة لنا فيها ،والإلمام بما يتعلّق بالأسلوبين (الإثبات والنفي) واجب على مفسِّر كتاب الله ،لأنّ الخطاب قد يتضمّن إصلاح الاعتقاد ؛بتطهير القلب من الأوهام والشِّرك ، قال تعالى : ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾[هود:101] ،فأُسند إلى آلهتهم زيادة تتبيبهم ،وليس من فعل الآلهة ولكنّه من آثار الاعتقاد بالآلهة.

يشير الإخبار أحيانا إلى الواجب والمستحب والمكروه من الأعمال[2] ،وذلك استعانة بالسياق بقرائنه ،ويكون هذا الفعل من مهام علماء الأصول ،هو من الخطاب التعليمي أيضا ؛

(1) يرى المتوكل أنّ موقف المتكلِّم من القضيّة يوصف بالوجه المعرفي (مؤكد ،أو محتمل ،أو ممكن ،أو إثبات ،أو نفي). ينظر: من قضايا اللّغة في اللّسانيات الوظيفيّة : بنية الخطاب من الجملة إلى النّص،أحمد المتوكل:47.

(2) وصفه المتوكل من الناحية الوظيفية بالوجه الحملي ،ودواله كثيرة كـ "يجب أن ،ينبغي أن .. ينظر: من قضايا اللّغة في اللّسانيات الوظيفيّة : بنية الخطاب من الجملة إلى النّص،أحمد المتوكل:50.

المنارة للاستشارات
ww

يشير إلى الأحكام الشرعية صراحةً بجملٍ خبرية اعتمادا على توجيه من أفعال مخصوصة كـ"لا ينبغي.." ، وتتبّع مواضعه في القرآن مع كون الخطاب صادرا من الذات الإلهية ؛

تبرز الذاتية أيضا في هذا النمط الخطابي في الأفعال الكلامية أو ما يُسمى بالقوة الإنجازية الحرفية منها والمستلزمة [1] ،وهي مناسبة جدا لهذا النمط لما تحمله من أوامر أو نواهٍ واضحة ،من ذلك قول الله تعالى يعلّم نبيّه محمد عليه الصلاة و السلام ،فبُدئ الكلام بالتوكيد وخُتم بطلب صريح ؛نهيٌ في : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً﴾[النساء:105] ،وأمر في قوله تعالى:﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ ﴾[المائدة:48) ،ولقد لاحظ ابن عاشور أنّ الأحكام قد جُمعت في القرآن "جمعا كليًّا في الغالب ،وجزئيًّا في المهم ،فقوله ﴿تبيانا لكل شيء﴾[النّحل:89] ،وقوله : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾[المائدة:03] ،المراد بهما إكمال الكليّات التي منها الأمر بالاستنباط والقياس". [2]

من الأمر الصّريح كذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة 150] ،أو ما شاكله في الدلالة من جملة خبريّة في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة 179] ،وقوله أيضا : ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ [عبس 3] ،فالاستفهام ﴿وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ بمعنى: "انظر فقد يكون تزكّيه مرجوًّا". [3]

(1) ينظر: من قضايا اللّغة في اللّسانيات الوظيفيّة : بنية الخطاب من الجملة إلى النّص،أحمد المتوكل:47

(2) التّحرير والتّنوير ،محمد الطاهر ابن عاشور:40/1.

(3) المصدر نفسه: 30 / 806.

المنارة للاستشارات
ww

فالأمر في القرآن إذا كان من الله أو على لسان أنبيائه ورسله يأتي لإصلاح وتعليم الفرد كما يأتي ضابطا لسياسة الأمّة وحافظا لنظامها ،كالإرشاد إلى تكوين الجماعة[1] ،في قوله الله تعالى:﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[آل عمران:102] ،وقد يأتي هذا الأمر إيماءً بخبر مثبت مؤكّد ذي قوة إنجازية مستلزمة كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾[الأنعام:159] ،وقوله : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾[الشّورى:38] ، ومن صوره أيضا يذكر ابن عاشور المبالغة في طلب الأمر على سبيل الحثّ قصد تعليم النّاس فقه المعاملات كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة 282]، إذ إنّ القصد من الكتابة بين المتداينين التوثق للحقوق وقطع أسباب الخصومات، لذا كان الأمر للتكرار على نحو ما أشار إليه الطاهر بن عاشور، لا سيما أنّ﴿ فَاكْتُبُوهُ﴾ معلّق بشرط على نحو ما سماه الأقدمون في عباراتهم نسخا."[2]

ومن صور النهي الصريح من أجل تهذيب الأخلاق قوله تعالى [3]: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة 264] ،فقد جاء هذا النهي على صورة المجاز المرسل وفق علاقة المسبّبية ،كما وُظِّف التشبيه من أجل المقابلة حتى يسهل على المتعلِّم

(1) ينظر: المصدر نفسه:40/1.

(2) التّحرير والتّنوير ،محمد الطاهر ابن عاشور: 3 / 100.

(3) المصدر نفسه: 26 / 127.

المنارة للاستشارات
ww

القياس ،فيعمل بما يُحسِّنحاله ويبتعد عمّا عن طريق الله ،أمّا النهي في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾[الأنفال:46] فقد جيء به لتعليم الأمّة ما يجمع شملها.

لا يخلو الخطاب التعليمي أيضا من السِّمة الموضوعية التي يندرج تحتها كلّ ما لا علاقة له بموقف المتكلِّم ،وقد لاحظ المتوكِّل أنّه إن وُجد في موضع ما من الخطاب عبارة من العبارات الّتي تنمّ عن موقف المتكلِّم من فحوى خطابه ،فإنّ ذلك – على لسان المتوكل– مؤشر للانتقال من نمط خطابي إلى نمط خطابي آخر ؛من سرد أو وصف موضوعي إلى سرد أو وصف ذاتي"[1] ،كما في أسلوب الالتفات ، وهو من أفانين الكلام ، "وهو نقل الكلام من أحد طرق التكلّم أو الخطاب أو الغيبة إلى طريق آخر منها"[2] ،وهذا ما يسمِّيه ابن عاشور بالتّفنّن في أساليب القرآن ،"وهو من بداعة تنقّلاته من فن إلى فن بطرائق الاعتراض والتّنظير والتّذييل والإتيان بالمترادفات عند التكرير تجنّبا لثقل تكرير الكلم...،والإكثار من أسلوب الالتفات" [3] ،وهذا الأسلوب يكثر في الخطاب السّردي القصصي ،ولأننا نريد تحديد نموذج لبينة الخطاب التعليمي ،نرى أنّ القصص من تلك البُنى القرة في القرآن من أجل معرفة قصص وأخبار الأمم السّالفة ،وذلك للتأسي بصالح أحوالهم ،يقول تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى الله فَبِهُدَاهُم اقْتَدِهِ﴾[الأنعام:90] ،فظهر الالتفات في انتقال الكلام عن تلك الأمم إلى مخاطبة الرسول بوجوب الاقتداء بصالح أحوالهم ،فقال الله في موضع آخر : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوحَينَا إِلَيْكَ هَذَا القُرآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لمِنَ الغَافِلِينَ ﴾[يوسف:03] ،ويأتي توظيف القصص أيضا في القرآن للتحذير من مساوئ الأمم السابقة ،قال تعالى: ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا ﴾ [إبراهيم:45]،ومع أنّ نوع الخطاب قصّة إلاّ أنّه لا يخلو من

(1) من قضايا اللّغة في اللّسانيات الوظيفيّة : بنية الخطاب من الجملة إلى النّص،أحمد المتوكل :151.

(2) ينظر:التّحرير والتّنوير ،محمد الطاهر ابن عاشور ،محمد الطاهر ابن عاشور:109/1.

(3) ينظر: المصدر نفسه:116/1.

المنارة للاستشارات
ww

التّعليم كما لاحظ ابن عاشور[1] ،وهنا يتحقّق تكامل الخطابات بأنواعها لتعليم النّاس دينهم بما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم .

يظهر كذلك في الخطاب التعليمي أنّه خطاب مباشر[2] غالبا ،وقلنا غالبا لأنّ الخطاب ههنا ،هو نص مقدّس (القرآن الكريم) ،وهو أيضا كم هائل من المعلومات ،تُلقى إلى المخاطب في دفعات لأغراض عديدة ،لكن ما يُميِّز هذه المعلومات –في الخطاب القرآني– أنّها تصطبغ باللّمسة البيانية دائما ،كالإشارة لحضور المشار إليه في مثل قوله تعالى ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة 56] ، بـ"هذا"، وهي الإشارة إلى ما ذكر من أكل الزقوم وشرب الهيم و الاستظلال باليحموم في الآيات التي سبقت هذه الآية ،على سبيل الاستعارة العنادية التهكمية ؛بأن أُسند النّزل إلى " هذا " [3] .

فالإعجاز بالقرآن من المقاصد الملازمة للخطاب القرآني بكل أنواعه ،وذلك لأنّه أُريد بالقرآن أن يكون آية دالّة على صدق الرّسول وتحدِّيا لمعانديه ؛وبخاصة بالإعجاز البياني الذي وُجد في كل نمط خطابي (تعليمي، علمي حجاجي..وهلم جرا)، من ذلك قوله تعالى:﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ . بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام 40 – 41] ،فيُعلِّل ابن عاشور كون الفاعل والمفعول واحدا في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ ،في أنّ فعل الرؤية القلبية – وهو للتنبيه هنا – وقعت على المستفهم عنه الواضح والبادي لكل من يراه ؛فالمعنى أنّ المخاطب يعلم نفسه على الحالة

(1) ينظر: المصدر نفسه:41/1.

(2) ينظر :من قضايا اللّغة في اللّسانيات الوظيفيّة : بنية الخطاب من الجملة إلى النّص ،أحمد المتوكل:265-266.

(3) التّحرير والتّنوير ،محمد الطاهر ابن عاشور: 311/27

المنارة للاستشارات
ww

المذكورة بعد ضمير الخطاب، ليكون المخاطب فاعلا أو مفعولا باختلاف الاعتبار ،وهذا من خصائص أفعال باب الظن التي أشار إليها النّحاة في كون فاعلها ومفعولها واحد ".[1]

تظهر في الخطاب التعليمي إضافة على السِّمةِ الذاتيةِ السِّمةُ الموضوعيةُ ؛فقد تضمّن القرآن أحكاما خاصّة بالفرد وأخرى تُعنى بالجماعة ،تورد هذه الأحكام بالطلب المباشر بالأمر أو النّهي ،أو ما يقوم مقامهما من الأسلوب الخبري ؛ فقوله تعالى : {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيم}[البقرة:228] ، ورد الحكم فيه بنصه مفصّلا بجمل خبرية كلها مثبتة ،ماعدا جملة منفية واحدة (ولا يحلّ) ،ومع ذلك تضمّنت الآية أوامر ونواهي ضمنية تعلِّم العرب ،أو من خالطهم من أهل الكتاب بما يناسب حالة عصر المخاطبين ،وما يؤهِّلهم إلى تلقي الشّريعة ونشرها، وهو ما يُعرف بـ" علم الشرائع" و"علم الأخبار" .[2]

2-الخطاب الحجاجي: دعا القرآن في أكثر من موضع إلى إعمال الفكر من أجل إعلاء كلمة الحق ،فأشاد بالحكمة بقوله تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[البقرة:269] ، فالحكمة هي ميزان العقول [3] ،لهذا كان البحث عن الأدلّة التي تقطع السبيل على المعاندين والمكابرين هو ضالة المحاجج في الحق ؛فكانت البنية النموذج لهذا الأسلوب في القرآن الكريم تظهر في أسلوب المقاولة (أي قل ...) ،وأسلوب المحاورة ،وكلاهما يهدف إلى التضييق على المعاند قصد إفحامه وإرغامه على قول الحق إن لم يشأ فعله ،من ذلك قصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود مثلا غير أنّ القول كان محكيا وهو يؤدي

(1) ينظر: المصدر نفسه: 7 / 220 – 221.

(2) المصدر نفسه:41/1.

(3) المصدر نفسه:41/1.

المنارة للاستشارات

الغرض كذلك أي التّحاج ،فقال الله تعالى : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[البقرة:258] ؛ صُدِّرت هذه الآية باستفهام مجازي لدخوله على فعل الرؤية المنفي وقد ثبتت الرؤية الفعلية ،يقول ابن عاشور:" ومثله شائع في كلام العرب فجرى عند البلغاء مجرى الأمثال، إذ يجعلون الاستفهام على نفي فعل ،والمراد حصول ضدِّه بحثٌ المخاطب على الاهتمام بتحصيله بتنبيهه[1]

لهذا يمكننا القول أنّ خروج الاستفهام عن حقيقته قرينة على هذا النمط الخطابي ،خاصة إذا توالت هذه الاستفهامات من أجل إحداث التعجيب[2] في توزيع خاص يتضمن ما يفيد التنبيه كحروف النداء ،أو الأفعال الدالة على التّفكّر (هدى، رشد ،..هلم جرا) .

الاستدلال إذن قوام الحجاج ،وقد يكون الاستدلال تعليميا ،وبذلك تتوافر بعض عناصر الخطاب التعليمي ،وهومن أساليب نقل المعارف وترسيخها ،وُجد هذا النّمط في القرآن لبيان علل بعض الأحكام ،من ذلك بيان العلة من تحريم التّبني في قوله تعالى {مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيل .ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا

(1) يقول ابن منظور:"قال بعضهم:ألم تر؟،أ لم تُخبر؟ ،وتأويله:"أعلن قصّتهم"...هي كلمة تقولها العرب عند التعجب من الشيء ،وعند تنبيه المخاطب،أي: "ألم تعلم لفعلهم؟،أ ولم ينته شأنهم إليك؟ .لسان العرب ،ابن منظور ،مادة(ر أ ي).

(2) معرفة بنى التعجيب تكون متاحة بعد نشر بحث :"بنية التعجيب في القرآن الكريم" للباحثة :"د. خديجة محمد الصافي.

المنارة للاستشارات
ww

آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}[الأحزاب:4-5].

وقد يكون الاستدلال جدليا ،فيسعى فيه صاحبه إلى استغلال المعطيات من المجيب لنفيها ،ويبقى المجيب مُصرّا على الإثبات كجدال المعاندين من الكفار ،أو قد يكون الاستدلال نقديا كقصة إبراهيم مع النمرود ،وذلكم كله من أجل التبكيت ،أو الإيقاع في الخطإ [1] ،أو إحداث التعجيب ،فهذه أغراض تجرّ إلى أخرى تدعو إلى التوحيد إذا ما جاء هذا النّمط في القرآن الكريم وهذا ما بيّنه ابن عاشور في أكثر من موضع .

3-الخطاب العلمي:

صنّفت نظرية النّحو الوظيفي الخطاب العلمي في كونه موضوعيا لانعدام السِّمات الذّاتية (الانفعاليّة خاصّة) بشكل واضح ،كما أنّه لا وجود للقوّة الإنجازيّة المستلزمة (معنى المعنى والصور البيانية) الّتي تظلّ من خصائص الخطاب الذّاتي ،فالقوة الإنجازيّة الوحيدة الممكنة في هذا النّمط هي القوّة الإنجازيّة الحرفيّة "الإخبار"[(2)] بجمل علمية ، أمّا عن البنية النموذج لهذا النمط في القرآن ،فتظهر على شكل معان حكميّة وإشارات علمية ،وقبل نزول الوحي لم يكن للعرب علم سوى الشعر ،وما تضمّنه من الأخبار[(3)] ، لهذا لاحظ ابن عاشور بتفسيره لكتاب الله أنّ القرآن قد اشتمل على صنفين من العلم ؛ علم اصطلاحي وعلم حقيقي ،فالاصطلاحي ما تواضع الناس في عصر من العصور على أن صاحبه يعدّ عالما ،وهذا قد يتغيّر ويختلف باختلاف الأمم والأقطار ولا تخلو منه أمّة ، أمّا " العلم الحقيقي فهو معرفة ما بمعرفته كمال الإنسان ،وما به يبلغ إلى ذروة المعارف وإدراك الحقائق النّافعة عاجلا وآجلا ،وكلا العلمين كمال إنساني ،ووسيلة لسيادة أصحابه

(1) يُنظر :مطارحات في الحجاج التأويلي ،علي الشبعان ،مكتبة المتنبي 1436 :162-163.

(2) ينظر: من قضايا اللّغة في اللّسانيات الوظيفيّة : بنية الخطاب من الجملة إلى النّص،أحمد المتوكل: 242.

(3) التّحرير والتّنوير ،محمد الطاهر ابن عاشور ،محمد الطاهر ابن عاشور:125/1.

المنارة للاستشارات

على أهل زمانهم ،وبين العلمين عموم وخصوص من وجه ،وهذه الجهة خلا منها كلام فصحاء العرب ،لأنّ أغراض شعرهم كانت لا تعدو وصف المشاهدات والمتخيّلات والافتراضات المختلقة ،ولا تحوم حول تقرير الحقائق وفضائل الأخلاق ،التي هي أغراض القرآن"[1] .

أمّا النوع الأوّل فيرى ابن عاشور أنّه لا يحتاج إلى "كد فكر ولا يقتضي نظرا ،فإنّ مبلغ العلم عندهم يومئذ علوم أهل الكتاب ،ومعرفة الشرائع والأحكام ،وقصص الأنبياء والأمم وأخبار العالم ،.... لهذا يقلّ في القرآن التعرّض إلى تفاصيل أخبار العرب ،لأنّ ذلك أمر مقرّر عندهم معلوم لديهم ،وإنّما ذكر قليل منه على وجه الإجمال على معنى العبرة والموعظة بخبر عاد وثمود وقوم تبّع"[2] ،وأمّا النوع الثّاني من إعجازه العلمي فيقسِّمه ابن عاشور إلى قسمين :"قسم يكفي لإدراكه فهمه وسمعه ،وقسم يحتاج إدراك وجه إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم ،فينبلج للناس شيئا فشيئا انبلاج أضواء الفجر ،على حسب مبالغ الفهوم وتطوّرات العلوم ،وكلا القسمين دليل على أنّه من عند الله ،لأنّه جاء به أمّي ،في موضع لم يعالج أهله دقائق العلوم ،والجائي به ثاو بينهم لم يفارقهم"[3] ،والنّوع الثّاني هو أعلى درجات الإعجاز العلمي بوصفه مُقرًّا لنتائج البحوث العلميّة المتطوِّرة والتّركيز عليه في التّفسير زاد من معتنقي الدين الإسلامي من غير العرب.

4–الخطاب القصصي:

يختلف القصص القرآني عن غيره من القصص في كونها –يقول ابن عاشور–" لم تُسق مساق الإحماض(الإفاضة فيما يؤنس) ،وتجديد النّشاط ،وما يحصل من استغراب مبلغ تلك الحوادث من خير أو شر لأن غرض القرآن أسمى وأعلى من هذا ،ولو كان من هذا لساوى كثيرا من قصص

(1) المصدر نفسه:126/1.

(2) المصدر نفسه:126/1.

(3) التّحرير والتّنوير ،محمد الطاهر ابن عاشور ،محمد الطاهر ابن عاشور:127/1.

المنارة للاستشارات
ww

الأخبار الحسنة الصادقة ، فما كان جديرا بالتّفضيل على كلّ جنس القصص ....،إن في تلك القصص لعبرا جمة وفوائد للأمة "[1]،لذا سيقت القصص في القرآن مفرّقة موزّعة على مقامات تناسبها ،لأن معظم الفوائد الحاصلة منها لها علاقة بذلك التّوزيع فلم تأت متتاليّة متعاقبة في سورة أو سور كما يكون كتاب تاريخ ،ليأخذ القرآن من كل قصّة أشرف مواضيعها ويعرض عمّا عداها ،تنزيها للقرآن عن قصد التّفكّه بالقصص ،فهو بالخطابة أشبه [2] ،ليتفرّد القرآن بأسلوب خاص في السّرد القصصي ،ذكر أهمّ خصائصه ابن عاشور بعد تحليل وظيفي له ،تُلخّص فيما يلي[3]:

1- بُثّ القصص القرآني بأسلوب بديع ؛ فمع المحافظة على الغرض الأصلي الذي جاء به القرآن (التشريع و التفريع)، سيقت القصص للاتّعاظ بها ،فاشتملت على قصارى علم أهل الكتاب في ذلك العصر (معرفة أخبار الأنبياء وأيّامهم ،وأخبار من جاورهم من الأمم) ،وذلك تحدّيا لأهل الكتاب ،وتعجيزا لهم بقطع حججهم على المسلمين ،وبذكر شرائع الأنبياء مع تهميش لبعض التّفاصيل في قصّها ،وهذا" من أسلوب القرآن في هذا الغرض ؛ أنّه لا يتعرّض إلا إلى حال أصحاب القصّة في رسوخ الإيمان ،وضعفه ،وفيما لذلك من أثر عناية إلهية أو خذلان ،وفي هذا الأسلوب لا تجد في ذكر أصحاب هذه القصص بيان أنسابهم أو بلدانهم ؛إذ العبرة فيما وراء ذلك من ضلالهم أو إيمانهم ،وكذلك مواضع العبرة في قدرة الله تعالى في قصة أهل الكهف....،فلم يذكر أنّهم من أي قوم ،وفي أي عصر ،كذلك قوله فيها:﴿فابعثوا...﴾،فلم يذكر أية مدينة هي ،لأنّ موضع العبرة هو انبعاثهم ،ووصول رسولهم إلى المدينة إلى قوله:﴿وكذلك أعثرنا...﴾" [4] ، فيُتّعظ بالقصص إذن في معرفة ترتّب المسبّبات على أسبابها في الخير والشّر ،والتّعمير والتّخريب ،لتقتدي

(1) ينظر:المصدر نفسه:64/1.

(2) ينظر: المصدر نفسه:64/1.

(3) المصدر نفسه:64/1-69.

(4) التّحرير والتّنوير ،محمد الطاهر ابن عاشور ،محمد الطاهر ابن عاشور:66/1.

المنارة للاستشارات
ww

الأمّة بالأمم السّابقة ،وترقى همتها إلى السعي إلى السيادة بما تحصِّله من فوائد في تاريخ التشريع والحضارة المدنية ،وتَحذَر بما لحق بالأمم الضّالة، لأنّ قوة الله فوق كل قوة.

2– تكرار القصّة في سور كثيرة له فوائد عديدة ،فالقرآن –كما وصفه ابن عاشور توظيفا –"هو بالخطب والمواعظ أشبه منه بالتآليف ،وفوائد القصص تجتلبها المناسبات ،فتُذكر القصة كالبرهان على الغرض المسوقة هي معه ،فلا يعدّ ذكرها مع غرضها تكريرا لها ،لأن سبق ذكرها إنما كان في مناسبات أخرى ،كما لا يقال للخطيب في قوم ،ثمّ دعته المناسبات إلى أن وقف خطيبا في مثل مقامه الأوّل ،فخطب بمعان تضمّنتها خطبته السّابقة ،إنّه أعاد الخطبة ،بل إنّه أعاد معانيها ولم يعد ألفاظ خطبته ، وهذا مقام تظهر فيه مقدرة الخطباء ،فيحصل من ذكرها هذا المقصد الخطابي ،ثم تحصل معه مقاصد أخرى"[1] .

إذن تختلف بنية القصة تبعا لاختلاف مقامات سوقها بكلِّ مكوِّناتها(حال المخاطب ،الغرض ،الزّمان ، المكان) ، فحال المخاطب بين الكفر والإيمان ،لذا تساق القصة تارة إلى المشركين ،وتارة إلى أهل الكتاب ،وتارة تساق إلى المؤمنين ،وتارة إلى كليهما ،وقد تساق للطّائف من هؤلاء في حالة خاصّة ،ثمّ تساق إليها في حالة أخرى، فتختلف حكاية القصّة الواحدة منها بأساليب مختلفة ،ويذكر في بعض حكاية القصة الواحدة ما لم يذكر في بعضها الآخر ،مع تفاوت بين الإطناب والإيجاز على حسب المقامات ،بـ"تجنب التطويل في الحكاية الواحدة فيقتصر على موضع العبرة منها في موضع ،ويذكر آخر في موضع آخر ،فيحصل من متفرِّق مواضعها في القرآن كمال القصّة أو كمال المقصود منها ،وفي بعضها ما هو شرح لبعض ....،ومنها ما يكون بعض القصّة المذكور في موضع مناسبا للحال المقصود من سامعيها ،ومن أجل ذلك تجد ذكرا لبعض القصّة في

(1) المصدر نفسه:68/1.

المنارة للاستشارات
ww

موضع ،وتجد ذكرا لبعض آخر منها في موضع آخر ،لأنّ فيما يذكر منها مناسبة للسِّياق الذي سيقت له "[1] ؛ فقصّة بعث موسى مثلا بُسطت في سورة طه ،وسورة الشعراء ،و أوجزت في آيتين في سورة الفرقان: ﴿ وَلَقَد آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً ، فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً ﴾ [الفرقان:35] ،لهذا يرى ابن عاشور أنّ ذكر القصة خارج السياق القرآني ،قد يكون له قصد وهو التنبيه على خطأ المخاطبين فيما ينقلونه من تلك القصة ،وقد لا يكون من ذكرها أي قصد .

3- إنّ سوق القصص في مناسباتها يكسبها صفتين :صفة البرهان ،وصفة التبيان ،فكان لأسلوب القصّاصين في سوق القصص لمجرّد معرفتها ، وكما قال ابن عاشور أسلوب القصص في القرآن قاضٍ للوطرين ، وهو أسلوب معبّر عنه بالتّذكير وبالذِّكر في الآيات .

4- أسلوب التوصيف والمحاورة في حكاية القصص سلوك لم يكن معهودا للعرب ،فكان مجيؤه في القرآن ،وفي البلاغة العربية ابتكارا لأسلوب جديد شديد التّأثير في نفوس أهل اللسان ،كحكاية أحوال النّاس في الجنّة والنّار والأعراف في سورة الأعراف [2] ،وكأسلوب الوصف المباشر نقلا لحال ادِّعاء "فرعون" – مثلا- للسّلطة ،فيما قاله الله تعالى على لسانه :﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أليسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: 51] ما يتمحّض عنه احتمالان لوظيفة الظرف "تحت"؛ في قوله﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ﴾ ، أحدهما -يذكر ابن عاشور- أن يكون فرعون قد ادّعى أنّ النّيل يجري بأمره، فيكون "من تحتي "كناية عن التّسخير كما في قول النّاس: " دخلت البلدة الفلانية تحت الملك فلان"، والاحتمال الثّاني أنّ فرعون أراد بقوله ذاك أنّ النّيل يجري في مملكته من بلاد أسوان إلى البحر، فيكون في "تحتي" استعارة للتّمكّن من تصاريف النيل كالاستعارة في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم 24] على تفسير"

(1) التّحرير والتّنوير ،محمد الطاهر ابن عاشور ،محمد الطاهر ابن عاشور:69/1.

(2) ينظر :المصدر نفسه:64/1-69.

المنارة للاستشارات
ww

سريّا " بنهر، ويجوز أن يكون المراد بالأنهار مصبّ المياه التي كانت تسقي المدينة والبساتين التي حولها، وأنّ توزيع المياه كان بأمره في سدود وخزانات ،فهو يُهوِّل عليهم بأنّه إذا شاء قطع عنهم المياه[1].

5- نُسج نظم القصص القرآني على أسلوب الإيجاز ليكون شبهها بالتّذكير أقوى من شبهها بالقصص ،مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ {26} بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ {27} قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ "فقد حكيت مقالته هذه في موقع تذكيره أصحابه بها ،لأن ذلك محز حكايتها ، ولم تحك أثناء قوله: ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ [القلم 17] ،وقوله: ﴿فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ . أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ [القلم 21، 22] ".[2] ، فيرى ابن عاشور في تفسيره الآيتين السّابقتين أنّ " إن " تأتي للدلالة على اليقين لأغراض بلاغية كالتذكير ؛فقولهم : ﴿ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾، "ليس بشرط تعليقٍ، ولكنّه مستعمل في الاستبطاء، فكأنّهم لإبطاء بعضهم في الغدو قد عدل عن الجذاذ ذلك اليوم"[3].

6-من الإيجاز الّذي ميّز القصص القرآني كذلك طيّ ما يقتضيه الكلام الوارد ،نحو قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى. فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ [النجم 53-54] تفخيماً بما يتناسب مع مقام التهويل، " وكأنّ المتكلِّم أراد أن يبيِّن بالموصول والصِّلة وصف فاعل الفعل، فلم يجد لبيانه أكثر من إعادة الفعل إذ لا يُستطاع وصفه ".[4]

(1) ينظر :المصدر نفسه: 230/25.

(2) التّحرير والتّنوير ،محمد الطاهر ابن عاشور:65/1.

(3) المصدر نفسه: 83/29.

(4) المصدر نفسه: 155/27

المنارة للاستشارات
ww

بنية الخطاب الإلهي(مبتكرات القرآن):

أمّا عن بنية القرآن وتحليل خطاباته ،فقد ميّزها ابن عاشور بمصطلح "مبتكرات القرآن" ،وهي نظامه الذي يميِّزه عن سائر الكلام ،والّذي خلُص إليه ابن عاشور بعد تحليل للخطاب الإلاهي بمختلف أغراضه ،وبتتبّع مختلف مستوياته المعجميّة والتركيبيّة والدّلاليّة والتّداولية ،فخرج بـ[1]:

1- بُني نظم القرآن على وفرة الإفادة وتعدّد الدلالة ،جُمَلُه لها من الدلالة الوضعيّة التركيبية ما يشاركها فيها الكلام العربي كلُّه ،و دلالتها البلاغيّة لا يصل شيء من كلام البلغاء إلى مبلغ بلاغتها وإن شاركها في مجملها كلامهم ،أمّا ما طُوي من دلالة في جمل القرآن –وهو كثير – فالقرينة دالّة عليه كتقدير القول وتقدير الموصوف وتقدير الصِّفة ،وهي دلالة قليلة في كلام البلغاء ،كما تقلّ لقصر أغراض كلام العرب في قصائدهم وخطبهم الدلالة التي تتأتّى لجمل القرآن بحسب ما قبلها وما بعدها ؛ككون الجملة في موقع العلّة لكلام قبلها ،أو في موقع الاستدراك أو في موقع جواب سؤال ،أو في موقف تعريض أو نحوه ،"فإنّه –يقول ابن عاشور- لما كان من قبيل التّذكير والتلاوة سمحت أغراضه بالإطالة ،وبتلك الإطالة تأتّى تعدّد مواقع الجمل والأغراض".[2]

2- تضمّن القرآن لكلِّ أساليب الأدب بما يناسب أغراض الحياة ؛كالمحاورة والخطابة والجدل والأمثال (أي الكلم الجوامع) والقصص والتوصيف والرِّواية بما يصلح لكل العقول ، وبما يليق به من معان وألفاظ ولهجة [3] ، كما أنّ القرآن قد اشتمل إضافة إلى أنواع أساليب الكلام العربي

(1) ينظر: التّحرير والتّنوير ،محمد الطاهر ابن عاشور ،محمد الطاهر ابن عاشور:119/1.

(2) ينظر: المصدر نفسه:110/1.

(3) ينظر: التّحرير والتّنوير ،محمد الطاهر ابن عاشور:115/1.

المنارة للاستشارات
ww

أساليب مبتكرة لم يكونوا يعرفونها ، خالف بها أساليب العرب ؛بأن جمع بين مقصديه – مقصد الموعظة ومقصد التّشريع –تنويعا كما لاحظ ابن عاشور.[1]

3 –من أساليب القرآن التي رأى ابن عاشور أنّ المفسِّرين قد أغفلوا ذكرها ،أنّ اللّفظ المشترك في معنيين أو معان إذا صلح المقام بحسب اللغة العربية لإرادة ما يصلح منها ،فكلّها مرادة ،وبذلك تكثر معاني الكلام مع الإيجاز ،وهذا من آثار كونه معجزة ؛ف " إنّ " التّوكيد يتعلّق بسمة الإسناد الداخلة عليه من حيث الحقيقة والمجاز، ففي قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود 29]، يرى ابن عاشور إن كان اللقاء حقيقة لرد إنكار قومه البعث فالتأكيد حقيقيّ، وإن كان اللقاء مجازا، فالتأكيد للاهتمام بذلك اللقاء، وقد زيد هذا التأكيد تأكيدا بجملة ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾. [2]

4– أسلوب التّقسيم والتّسوير[3] أسلوب قرآني ،ومنها الأسلوب القصصي بما فيه من حكاية ،وتمثيل...وهلم جرا.

5– الجمل العلميّة والقواعد التّشريعيّة يكثر استعمالها في القرآن الكريم.

6–وقد استقرى ابن عاشور أساليب القرآن فلاحظ أنّ حكاية المحاورات والمجاوبات في القرآن تحكى بلفظ"قال" دون حروف عطف ،إلاّ إذا انتُقل من محاورة إلى أخرى نحو قوله الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُم عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

(1) ينظر: التّحرير والتّنوير ،محمد الطاهر ابن عاشور ،محمد الطاهر ابن عاشور:110/1.

(2) المصدر نفسه: 57/12

(3)"السّور هو اللّفظ الدّال على كميّة الأفراد...وإنّما سمّي اللّفظ الدّال على التّعميم أو التّبعيض سورا لإحاطته بجميع الأفراد ،أو بعضها كإحاطة السّور الحسّي بكلّ المدينة أو ببعضها ،فإنّه أيضا يسمّى سورا وإن لم يحط بجميعها فهو مجاز لغوي ،والعلاقة فيه الإحاطة وحقيقة عرفية . المختصر في علم المنطق،ش:101.

المنارة للاستشارات
ww

﴾[البقرة:30] ،إلى قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[البقرة:33] ،وباستقراء عادات كثيرة في اصطلاح القرآن رأى ابن عاشور كذلك بجهده أنّ كلمة "هؤلاء" إذا لم يرد بعدها عطف بيان يبيِّن المشار إليهم ،فإنّها يراد بها المشركون من أهل مكة كقوله تعالى: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ ﴾ [الزّخرف:29].

مما تقدم نلاحظ ما رآه المتوكِّل في غير هذه السياقات من : "أنّ الحاجة إلى المعلومات غير اللّغويّة (معلومات مقاميّة ،معارف عامّة) تقلّ بقدر توافر المعلومات اللّغويّة ؛أي المعلومات المبلّغة عن طريق اللّغة ،لازم ذلك **أنّ** الحاجة إلى القوالب الأخرى غير القالب النّحوي ،تكبر كلّما تقلّصت الوحدة الخطابيّة ،يمكن تلخيص ما أوردناه – على لسانه– هنا عن تفاعل القوالب في عمليّتي إنتاج الخطاب وتأويله ...في أنّ لدى مستعمل اللّغة مجموعة من الطاقات ؛لغويّة وغير لغويّة يستخدمها حين التّواصل بواسطة اللّغة ،بقدر ما يتطلّبه حجم الخطاب ونمطه." [1].

وعليه نلاحظ أيضا أن "الطّاهر ابن عاشور" في تفسيره "التّحرير والتّنوير" قد التقى بأهمّ النظريات اللغوية الحديثة (نظرية النحو الوظيفي) ،وأضاف إليها الكثير من التفاصيل التي غابت في البنية النموذج للخطابات التي أشار إليها المتوكل ؛سواء ما كان من جهده أو ما نقله من نظرة الغرب للخطابات بأنواعها ،فبين أن خصائص الخطاب الإلهي منطلقةٌ أساسا من اللّغة العربيَّة المستعملة ،فلم يُحمل "ابن عاشور "كلام الله عز وجل التّأويلات بمجرد الاحتمال النّحوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام ،بل قدّم تفسيرا للقرآن في ضوء أحوال الناس وظروفهم ،وبما يتناسب مع معطياتهم الواقعيَّة ،مع الالتزام بالمعايير الضابطة لتفسير القرآن الكريم لفهمه فهمًا سليما.

(1) من قضايا اللّغة في اللّسانيات الوظيفيّة : بنية الخطاب من الجملة إلى النّص،أحمد المتوكل:267.

المنارة للاستشارات
ww

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

- الإيضاح في علوم البلاغة ،الخطيب القزويني (ت : عبد المنعم خفاجة) ، دار الجيل (بيروت) ، الطبعة الثالثة ، 1993 .

- الخطاب وخصائص اللغة العربيّة –دراسة في الوظيفة والبنية والنّمط–، د.أحمد المتوكِّل ، دار الأمان(الرِّباط) ،منشورات الاختلاف (الجزائر) ، الدّار العربيّة للعلوم والنّشر (لبنان) ،الطّبعة الأولى ،2010.

- الوظائف التّداوليّة في اللّغة العربيّة ، د.أحمد المتوكِّل ، دار الثّقافة(الدّار البيضاء) ، الطّبعة الأولى ، 1985.

- تفسير التحرير والتنوير :محمد الطاهر ابن عاشور ، الدار التونسية للنشر(تونس) ، ب.ط ، 1984.

- شرح المختصر في علم المنطق السّنوسي حاشية إبراهيم البيجوري ، محمد بن يوسف السّنوسي ،مطبعة التّقدم العلميّة (مصر) ، الطّبعة الأولى ، 1321هـ.

- لسان العرب ، جمال الدين ابن منظور ، دار صادر (بيروت) ، الطبعة الأولى ، 1992 .

- مطارحات في الحجاج التأويلي ،علي الشبعان ،مكتبة المتنبي 1436

- معترك الأقران في إعجاز القرآن ، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر السيوطي (ض: أحمد شمس الدين) ، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى، 1988.

- مفتاح العلوم ، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي ،ضبطه :نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية بيروت (لبنان)، الطبعة الأولى، 1983/1403 ،الطبعة الثانية ،1987/1407.

المنارة للاستشارات

ww

– من قضايا اللّغة في اللّسانيات الوظيفيّة : بنية الخطاب من الجملة إلى النّص د. أحمد المتوكّل ، ،دار الأمان(الرباط).

– من قضايا اللّغة في اللّسانيات الوظيفيّة :بنية المكوّنات أو التّمثيل الصّرفي التركيبي د. أحمد المتوكّل ، ،دار الأمان(الرباط).

– نسخ الوظائف النّحويّة في الجملة العربيّة ،خديجة محمد الصّافي ،دار السلام ،الطبعة الأولى ،2007.

موقع إلكتروني:

http://ar.wikipedia.org/wiki/متوكل

https://ar.wikipedia.org/wiki/. محمد الطاهر ابن عاشور .

المنارة للاستشارات

ww